أزمة الحياة الدينية في مصر

للدكتور مصطفى كمال وصفى الرافعى
المستشار المساعد بمجلس الدولة

لكل شعب مقوماته الأساسية التى تنهض عليها مدنيته ، وتوافق طبائعه ، وتستقيم معها خطواته

وفيما أرى ، فان الدين من أهم مقوماتنا .

هذه هى طبيعتنا . وقد استخلصتها من استقراء شواهد عديدة تاريخية واجتماعية ، ومن فهمى الخاص لما أعرفهم من المصريين .

وليس الأمر كذلك بالشبه لجميع الشعوب ، فمنها من تقوم مدنيته على فهم مادى بحت وتقدير مالى للأمور ومنها من تقوم حياته على أسس عقلية وعلمية بحتة - ومنها من يقوم على اساس تمجيد الفرد لنفسه ومنها مايقوم على الفناء فى النظام والسلطة وهكذا . لكل شعب طبيعة .

* * *

ولكن فينا صفة أخرى تعرقل مقوماتنا الأساسية وتفسد عملها تلك الصفة هى عدم الاعتزاز بذاتيتنا وبما ينبعث منا . ولذلك نرى أن المصرى سهل التطور سريع التأثر بغيره والتطبع بما يطرأ عليه والتقليد بغيره .

وليس أدل على ذلك من أستعراض صفحة مصر خلال القرن الأخير . ومطالعة الملامح التى طرأت عليها فى هذه الفترة الوجيزة ليرى التطور الشامل والتغيير التام بين كل ماهو كائن الآن وكل ما كان خلال القرن التاسع عشر لم يكن أحد يصدق أنه يستطيع أن يرى راحة سيدة أو يسمع صوتها . فاذا بنا الآن كما ترون . . ولا أزيد .

وهذه فنوننا وآدابنا وعلومنا وعاداتنا خليط عجيب لا مقوم له .

ولذلك ، فلم يكن من عجب أن ينتكص مقوم من مقوماتنا الأساسية وهو الدين ، وأن يمر بأزمة عنيفة وتجربة قاسية .

* * *

لاجدال فيما أظن فى أن الدين قد سيطر على الحياة المصرية مدة طويلة ، وكان لرجاله احترام وقدسية خاصة فى النفوس ولعهد

قريب كان لرجال الدين مكانتهم وكيانهم :

ولا أظن أن أسرة كبيرة محترمة من الأسر المصرية الحاليـــة إلا وتنهض على أصل أو أساس ديني .

فهذه أسرة جـــدها من كبار العلماء أو من كبار شيوخ الازهر . وهذه أسره منها كبار الأئمه وكبار النقاه ، وهذه أسرة محترمة لأنها سارت على احترام المناسبات الدينية والاحتفال بها . وهذه اسرة تستمد أسماءها من الدين ، هذه أسرة الخليفة أو الشيخ اسرة الامام وهذه اسرة الخطب الآف من الاسماء الصوفية أو الدينية الأصل فى كل مكان .

ثم جاء وقت آخر أصبح الناس فيه يتبرأون من الدين ويفاخرون بالفجور . .

ثم هجمت علينا أطوافا من الثقافات الاجنبية المادية والعقلية والفردية والاجتماعية من كل بلد ومن كل بيئة وعلى كل عقيدة ولون ، نشأت كل منها فى جوها الخاص . .

فاذا بنا نعتقدها جميعـــا ونريد ان نذوب فيها جميعا وأن نصهرها فى أوعيتنا وقلوبنا . وكانت النتيجة الآن ان الناس يتكلمون بمـــا لا يفهمون . . ويرددون مالا يفقهون وكأننا فى برج بابل يتحدث كل منا بلغة لا يعرفها الآخرين . .

وطرحنا ما هو مصرى صحيح ونبذناه واستحى البعض منه . . ولم يحاول أن يطوره ويقـــوم معوجه ويتقدم به دون ان يتخلى عنه إلى غيره . .

* * *

أما الآباء والقدامى فقد انكمشوا انكماشا عجيبا امام الهجوم الجديد . فقد تبجح الجيل الجديد وصرح بالنقد والتهجم على القديم . وقال انه لا يفهمه . وان دولته قد دالت . وقال القديم نفسه صحيح انا لم اعد أفهم ولا استطيع ان اقاوم . .

ان الصحف الآن تعج بنقد الآباء . والإذاعات والروايات . . ويجادلنا أبناؤنا بهذا النقد الذى أصطلح على رأس الآباء من كل

جانب . ان « جراح القلوب » أو « استشرنى » أو غير ذلك من الردود على مشاكل الاسر . قد فتتت الاسرة وفتحت الاذهان الى نقد كل صورة لاى أب أو أم فى أى اسرة . أى أم أو زوجة تنشر معايب ما يبدر من أى واحدمنا فى بيته وتفضح عورات الاسر ويعاب عليها وتأتى ردود الصحيفة بالتسفيه الذى لا رحمة فيه وكانت النتيجة أن الابناء وجدوا معايير وقواعد اخرى غير توجيهات الآباء واحسنوا جدلهم ومقارعتهم الحجة فانهارت الرابطة الأساسية التى تجمع الاسرة . وتفككت النواة التى تلم هذه الخلية وهى السلطة الابوية .

وقد دلتنى على ذلك واقعتان :

الأولى : هى عندما قام الدكتور مصطفى محمود بنشر مقالاته الشهيرة ضد الإيمان . ودعى الناس إلى مناقشته والرد عليه .

والدكتور مصطفى صديق لأحد أقاربى . وعمد إلى أن يكون حلقة أتصال بينى وبينه ولكنى لم أتمكن من مقابلته — وهكذى أراد الله — رغم شوقى لهذه المقابلة . لانى لا اكره شخصا لرأيه ما دام نزيها فيه مستعدا للمناقشة .

وقد أرسلت لسيادته ردوداً كثيرة على مقالاته بمنتهى ما وسعنى من الأدب والاتقان . ولكنه كان دائما يعلن أنه لم يتلق أى رد سوى بعض الشتائم والإهانات التى لا موضوع لها ونشر طائفة من الكتابات العصبية التى تنم عن تهور كاتبيها وسوء أخلاقهم وقرر ان كل ما وصله من هذا القبيل .

فماذا يفعل مثلى والملايين الذين يعتقدون رأيى فى هذا الانكار وهذا اللون من الاضطهاد . قد كنت أريد أن اعتلى المنبر الذى يلتف حوله من يحتاجون الى سماع كلامى ، وليس منبر رجال الصوف والدين . . الذين لا يحتاجون الى ما كنت أقول لأن رأيهم أكرييي من البداية . .

وتجربة ثانية على يد السيدة أمينة السعيد . فهذه السيدة — كما هى لسان

رجال الصحافة — لها مكانة كبيرة في نفسي وأراها تحاول شيئا جعله الله نافعا . فهي تبذل جهودها بالاخلاص .

وحدث مرة أن كتب لها شخص بأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يأمره بأن يتزوج الممثله المعروفة أمينه رزق ! فردت عليه السيدة الصحفيه — بما هي عليه من إخلاص وحسن نية — تقول له ان ما رآه كان شيطانا وعليه أن يقول له اذا رآه مرة أخرى « أطلع من من دول كشفناك ! » ولما كانت رؤية الرسول هي أعز نعمة يتقلدها مسلم فقد كتبت لها بأنني كنت أفضل أن ترسل اليه رداً خاصا . لان الرجل قد يكون هازلا ولم يرشيئا وجرها بذلك الى هذه الورطة . أو يكون للرؤية تفسير خاص لأن المرأة قد تؤول تأويلا خاصا ، والزواج كذلك له تأويله وأسماء الاشخاص كلمة أمينة أو رزق لها تأويلها . وانهملت أن المتفق عليه أن رؤية الرسول صدق للحديث المعروف وأنه لا يليق ان يصرح يلقى إلى للناس أن يستهينوا برؤية الرسول ويقولوا له « أطلع من دول كشفناك »

فلم يعجبها هذا الكلام . ورمتني بالجنون : أي والله بالجنون ونشرت في حقي رداً لم اسمع أفظع منه سامحها الله فيه وقالت أنه يجدر بي أن أعرض نفسي على طبيب للامراض العصبية وطبعا لم اقتنع الى هذه النصيحة لأنني في غنى عنها كما يشهد كل من يعرفني . وكذلك لم أحاول معها اجراء آخر لأن كل من يتصل بي يعلم جيدا نوراً أنني المقصود بهذا الرد لأنه تضمن ما يخصني فيه ويبين أنه ينصب على من دون الناس جميعا .

هكذا كان نصيبي بسبب نصيحتي التي سقتها مخلصا لشخص احترمه وأريد أن أساعده على احسانه لعمله .

أسوق ذلك كله لكي أبين أنه يجب أن يكون في هذه الدولة جهازاً خاصا يحمي الحياة الروحيه ويسهر عليها ويوجهها وجهتها الصحيحه .

مصطفى كمال وصفي الرفاعي